

2

قصص الصحابة

صوت
من السماء

سلوى العناني

دار اللطائف

صوت من السماء

(بلال بن رباح)

[أنا الحبشي الذي كان بالأمس عبداً .. كنت ضالاً فهداني
الله .. وكنت عبداً فأعتقني الله] بلال بن رباح

هذا يومٌ من أعظم أيام التاريخ .. وربما كان أعظمها ..
ففى هذا اليوم فتح الله للإسلام فتحاً مبيناً .. فدخل
الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - مكة المكرمة
على رأس عشرة آلاف من المسلمين .. كان منهم الأنصارُ
ومنهم المهاجرون ، ومنهم أبناء القبائل الأخرى التي
أسلمت ، وآمنت بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ..

كان (عمرُ عليه السلام) يتمنى أن يدخل مكة دون أن
يسفك دماً على أرضها لتظل (حراماً) كما أراد الله لها ، وقد
منَّ الله عليه بهذا ..

فها هي طلائع المسلمين تقربُ من بيوت مكة ، ولم
يظهر من يعترضُ سيرها ..

إلى التبت الحرام اتجه النبي ، ومعه باقي المسلمين وارتفع
ندائهم .. لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ ، وتسابقوا إلى تحطيم الأصنام
داخل الكعبة ، ومن حولها .. وأزالوا الرسوم ، ومحووا كل
مظاهر الشرك وارتفعت تهليلاتهم .

{ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا }

[الإسراء: 81]

وجاء موعد الصلاة .. ومن فوق الكعبة ارتفع للمرة
الأولى صوت جميل ، بتداء الحق .. فكان ، وكأنه (صوت من
السماء) .

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمداً رسول الله ..

أشهد أن محمداً رسول الله ..

حي على الصلاة .. حي على الصلاة .

حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله ..

فَمَنْ هذا الرجلُ الذي كان له شرفُ إطلاقِ نداءِ الحقِّ
بالصلاةِ لأوّلِ مرةٍ في الكعبةِ المشرفةِ يومَ النصفِ من
رمضانِ في العامِ الثامنِ للهجرةِ ٢٢..

من هذا الرجلُ التحيلُ شديدُ السمرةِ مفرطُ الطولِ ..
قصيرُ الشعرِ؟

إنه (بلال بن رباح) ..

أول مؤذن في الإسلام ..

أول من رفع نداءَ الصلاةِ في مدينةِ رسولِ الله ..

كما علّمه إله الرسول ..

ثم هو يحظى بشرفِ رفعِ نَفْسِ النداءِ في الكعبةِ يومَ فَتَحَ
المسلمون مكةَ ، ودخلوها حاملين رايةَ الإسلامِ ، والتوحيدِ
لله ..

فهل ترجعُ قليلاً مع الأيامِ لتعرفَ من هو (بلال بن
رباح) ؟



كان هذا الرجل قَبْلَ إسلامه (عبدًا) يرفع الغنم لرجل
من سادة قريش يُدعى (أمية بن خلف) ، وكان أجره (بضغ
تمرات) يأخذها في نهاية يوم شاق من العمل ، ويتنحى
جانبًا ، فيأكل منه ما يأكل ، ثم يفرش الأرض ، لينام .. وفي
الصباح يمضي مع الإبل إلى حيث الكلاء غير عابئ بحرارة
الشمس ، ولا بقسوة الطبيعة .. ولماذا هو فاعلٌ ، وهو عبدٌ
لا أهل له ، ولا عشيرة ، وهو لا بد أن يستمر في عمله ،
حتى يضمن هذه التمرات التي لا تكاد تُسدُّ رمقه ؟

كان يتأمل الطبيعة حوله .. هذه الشمس تدور في قلبك
محكم ، فتتظم الأيام ، والليل ، والنهار ، وهذا القمر يأتي ،
فينظم الشهور ، والسنوات .

هذا الكلاء ينمو بين الصخور ، وفي الرمال .. وهذه
السحب تأتي أحيانًا بالطرير ، وأحيانًا تعبر الأرض فلا تجود
عليها بشيء من الماء ..

كان راضيًا بنصيبه من الحياة .. فهو عبدٌ أجير ليس له
حق المعرفة .. كان يحس أنه فقد الحق في أن يحلم بأن يكون

يومًا مثل باقي البشر .. فهو أسودُ البشرة وابنُ (أمية)^(١)
كانت هي الأخرى سوداء .

وسط ظلام الحية حوله تسللَ إليه يوما طيفُ نورٍ أبْقَظَ
فيه الأملَ .. وداعبَ الخُلْمَ ..

فقد سمع أن نبيا ظهرَ في مكة يدعو الناسَ إلى عبادةِ إلهٍ
واحدٍ ويقول : إن الناسَ سواسيةٌ ، ولا فَضْلَ لأبيضٍ على
أسودٍ إلا بالتقوى.. وإلى هذا الرسولِ النبيُّ ذهبَ (بلال) ،
فسمع حديثا لم يسمعه من قبل .. وأحسَّ لأول مرة أنه
إنسانٌ مثل باقي البشرِ ،

وأنه قادرٌ على أن يحلُمَ ، وأن يحققَ أحلامه ..

ونطقَ (بلال) بالشهادة بين يدي رسولِ الله وبدأ يأخذ
عنه تعاليمَ الإسلام .. وبدأ يشعرُ وكأن ضياءَ يغمُرُ نفسه
وينيرُ قلبه..

ويصلُ إلى علم (أمية بن خلفٍ) ما أقدمَ عليه (العبدُ

الحشي)، فيثور ثورة ما بعدها ثورة .. فكيف لهذا العبد أن
يعتق ديناً غير دين سيده .

كان هذا السيد زعيماً في قومه .. وكان واحداً من هؤلاء
الذين ثاروا ضد دعوة هذا الدين الجديد وتوعدوا صاحب
الدعوة وكل من يؤمن به . بالويل ، والشبور .

في ساعة الظهيرة جاءوا (بلال) مقبلاً بالسلاسل
فطرحوه أرضاً فوق الرمل ، والحصى الملتهب ، ثم حمل
مجموعة من الرجال صخرة ضخمة ، ووضعوها فوق
صدره ..

وجاء سيده يحمل السوط ، فيهوي به على ما ظهر من
جانبه طامعاً في أن يسمع منه كلمات اعتذار ، أو عذرة عن
هذا الدين الجديد الذي اعتنقه .. لكنه لم يسمع من بلال
إلا كلمة واحدة .. أحد أحد .. أحد أحد .

وتزاد ثورة (امية بن خلف) وأسراً بمضاعفة العذاب
على جسده (بلال) .

وببدأ الكفارُ في مساومة (بلال) .

- اذكر آهتنا بالخير فيتوقف عنك هذا العذاب .

- قل ربي اللات والعزى .

- اذكر (محمدًا) بسوء ..

فقط ينطق بكلمة واحدة ، ويتوقف العذاب ، لكنهم لم
يسمعوا منه إلا ما آمن به ..

أحدُ أحدُ .. أحدُ أحدُ ..

ويعلم (الصديق) أبو بكر بما حَدَّثَ (بلال) فيذهب إلى
(أمية بن خلف) يطلب منه شراء (العبد المتصرّد بلال) ..
ويفرح أمية بهذه الصفقة .. فها هو يتخلص من هذا العبد
المشاكبة ، ويبيع عن نفسه عارَ هذا الدين الذي اعتنقه ..
ثم هو يقبض ثمنه .. وهذا خيرٌ من قتلِهِ .. ويسلم
(أبو بكر) الدراهم إلى (أمية) .. ويصطحب معه (بلالا) ،
ويشتره بالحرية ..

نعم ، فقد اعتق أبو بكر (بلالا) منذ لحظة شرائه ، وإلى

أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ينضمّ (بلال) ،
ويتدارسُ الدينَ ، ويحفظُ القرآنَ ، ويدأومُ على الصلاة ..
ثم يهاجرُ مع من هاجرَ من المسلمين إلى المدينة هرباً من
ظُلَمِ كفارِ مكة ، وطغيانهم.

وفي المدينة بدأتْ دولةُ الإسلامِ تُرسى أركانها .. ففُرِضَتِ
الزكاةُ ، وفُرِضَ الصومُ ، واتسعتْ رقعةُ المدينة بزيادةِ عددِ
المسلمين وكان لابدً من وسيلةٍ تجمعُ المسلمين للصلاة في
وقتها .. وعلى لسانِ (جبريل) جاء الأمرُ للنبيِّ الكريمِ يرفعُ
الأذان في موعدِ الصلاة.

ويختارُ النبيُّ أجملَ صحابته صوتاً لكي يرفعَ نداءَ الحقِّ في
سماوِ (المدينة) .

وفي موعدِ كل صلاةٍ يصعدُ (بلال) فوقَ بيتٍ مرتفعٍ
يجاورُ مسجِدَ الرسولِ ، فيطلقُ صوتهَ الجميلِ العذبِ بلحلي
كلماتٍ سمعتها أُذنٌ على سطحِ الأرضِ ..

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمدًا رسول الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله ..

حي على الصلاة .. حي على الصلاة ..

حي على الفلاح .. حي على الفلاح ..

الله أكبر .. الله أكبر ..

لا إله إلا الله ..

لقد ارتفع هذا الصوت يومًا مرددًا - أحمَدُ أحمَدُ - بينما

كان العذابُ ينهلُ على جسدِ صاحبه .

وها هو اليومُ يرفعُ الأذان ، ويدعو الناسَ للصلاة ، وهو

فخورٌ .. سعيدٌ .. راضٍ .. فهو اليوم رجلٌ حرٌّ .. مؤمنٌ .. وها

هم المسلمون ازدادوا عُوًا ، وقوة ..

ولم يرضَ كفارُ قريشٍ ، وغيرها من قبائل العرب بهذا

الاستقرار الذي ينعمُ به المسلمون في المدينة . وأزعجتهم

هذه القوة في العدي والعنة التي وصلوا إليها .. فتعدتْ

غزواتهم يتمنون أن يكسروا شوكةَ الإسلام ، ويشغلوا

المسلمين عن دينهم بحروب تُفني رجالهم ، وتبدد ثرواتهم ،
وكانت (بدر) هي أولى الغزوات التي شنّها كفار قريش ،
وحلفاؤهم على المسلمين .. وتسابق المسلمون لحمل
السلح ، دفاعا عن دينهم ، وخرجوا للقاء هؤلاء المشركين
الذين سبق أن أذاقوهم مُرّ العذاب ، والاضطهاد أثناء
وجودهم في مكة .. وكان (بلال) واحداً من بين هؤلاء
الذين انطلقوا إلى ساحة القتال ، مدافعين عن دينهم
العظيم .

وكان شعاره الذي يصيحُ به طوال المعركة :

أحد أحد .. أحد أحد ..

وتأتي الفرصة إلى (بلال) ..

وترتفع يده بالسيف وينثر نفسه من (رأس الكُفَرِ أُميّة
ابن خلف) ..

هذه اليد التي قيدها (أميّة) يوماً بالأغلال والقيود ،
ليرغم صاحبها على الارتداد عن دينه ..

هذه اليد أصبحت اليوم حُرّة ، تدافع عن دين الحق ، عن
الإسلام ، ونبي الإسلام ..

كان (بلال) رفيقاً حميمًا لرسول الله .. لا يكاد يفارقه في
أيام السلم .. ولا في أيام الحرب ، وفي القتل يراه أصحابه
بطلا ، مقاتلا ، مُدافعًا عن الإسلام ، وعن رسوله .. ويزداد
حُبَّ رسول الله كل يوم لبلال حتى كان يصفه بأنه (رجلٌ
من أهل الجنة) .

على أن هذه المكانة التي خصّها به رسول الله لم تدخل في
نفسه غرورًا ، ولا كبرًا ..

وكان دائما يردد (أنا الحبشي الذي كان بالأمس عبداً ..
كنت ضالاً فهداني الله .. وكنت عبداً فأعتقني الله) .

ويتنقل النبي الكريم إلى الرفيق الأعلى ويغمر المسلمون
الحزن وإن كانوا قد رضوا بقضاء الله ..

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ
مَاتَ أَوْ قُبِلَ الْقَلْبُ ثُمَّ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ

عَقِبَهُ فَلَنْ يُضِرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}

[آل عمران : 144]

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ
الناس حُزنًا، فقد ألقوا صُحبته الجميلة ، وأحبوا حديثه
الطيب ..

فكيف يطيقُ رجلٌ مثل (بلال) أن يبقى في المدينة وقد
خَلَّتْ من الحبيب المصطفى الذي كان أحبَّ عنده من
نفسه ..

طلب (بلال) من خليفة رسول الله (أبي بكر) أن يأذن له
بالرحيل ، لأنه يفضل أن يقضي ما بقى من عمره مرابطاً^(١)
في سبيل الله ..

لقد اختار (بلال) هذا الموقف ، لأنه سَمِعَ رسولَ الله -
عليه السلام - يقول : "أفضلُ عَمَلٍ المؤمنِ الجهلُ في سبيل
الله"

(١) المرباط هو الرجل الذي يقف عند حدود الوطن حاميًا وحارسًا.

ولا يملكُ (الصديق) خليفةً رسولِ الله إلا أن يلبي رغبةً
(بلال) ، وإن كان قد غشى أن يبقيه في المدينة مؤذناً
للمسلمين بها .. وإلى الحدود الشمالية لدولة الإسلام -
إلى الشام - سافرَ (بلال) حيث قَضَى ما تبقى من حياته ،
وانتقل إلى جوار ربه وهو في الستين من عمره .. ودُفن في
بلاد الشام .

عليه رضوانُ الله .. ورحمته ، وبركاته ..



